التيار الإسلامي في شعر حافظ الاجتماعي

دراسة نقدية تحليلية

دكتور/ سعد عبد السلام علي نصار

المبحث الأول: مفهوم الشعر الإسلامى

الشعر الإسلامى فى حقيقة الأمر شعر سام، يسمو بالفكر إلى أعلى مراتبه، ويشمل الكون بتصوره، وهو ذلك الشعر المنبثق من التصور الإسلامى ومعتقده، أو هو ذلك الشعر الذى يصدر عن تجربة شعورية معينة، تحمل تصور الإسلام ومعتقده.

وعلى هذا قد يصدر الشعر الإسلامى عن شاعر غير مسلم، أو ليس وقفا على المسلمين وحدهم من الأدباء، لأن «التصور الفنى الإسلامى للكون والحياة والإنسان هو تصور كونى إنسانى.... مفتوح للبشرية كلها» (١)

ولكن المسلم فى الحقيقة هو أقدر على التعبير عن مثل هذه الصورة، لأن الإسلام معتقده ودينه، وهو أقدر على فهمه من غيره، ويمكنه بالتالى أن ينفعل مع الحوادث من خلال مفاهيمه هذه بسهولة ويسر دون كد وعناء وتكلف، وكفاه مربيا القرآن الكريم الذى يغذى روحه، ويوسع مداركه، ويطبع فى مخيلته أسس التصور الإسلامى للكون والحياة والعقيدة، بل للوجود بأجمعه.

فالشعر الإسلامى ليس هو فقط ذلك الشعر العربى الذى يتحدث عن الإسلام تاريخا وقوة وأخلاقا، أو الذى يتحدث عن الحب الإلهى، أو الذى يتناول قضايا الإسلام المعاصرة، أو ذلك الشعر الذى يتكلم عن اليوم الآخر، والجنة والنار ليس إلا.

---

١ - منهج الفن الإسلامى للأستاذ محمد قطب: ٢٦٥، ٢٦٦

إن الشعر الإسلامى فى جوهره هو ذلك الشعر الذى يملك الصورة الأوسع، والهدف الأكبر، والقصد الأعم، فهو يتناول جميع جوانب الحياة التى تعود بالنفع على البشرية، والتى لاتخرج عن نطاق الدين، ومايدعو إليه، ولا تناقضه ولا تنافيه، وتلتقى مع مقاصد الإسلام العديدة فى هذه الحياة.

إذن ليس من الضرورى أن يتحدث الفن الإسلامى عن الإسلام: حقائقه وعقائده، وشخصياته وأحداثه، وإن كان من الجائز بطبيعة الحال أن يتناول كل هذه الموضوعات... ولكنه يتناولها كما يتناول الوجود كله، وكل ما يجرى فيه من زاوية إسلامية، ويتشعرها بحس إسلامى، فقد يتحدث لنا الفنان عن البرعم النابض الذى ينبثق من ضمير الحياة.

وقد يتحدث عن الجبل الشامخ الأشم.

وقد يتحدث عن نبتة وحيدة فى الصحراء.

وقد يتحدث عن الليلة المقمرة.

وقد يتحدث عن طفلة شريدة.

وقد يتحدث عن مواجع البشرية.

وقد يتحدث عن صراع الناس فى الأرض.. (١)

إن فكرة الشعر الإسلامى فكره متسعة تشمل أكثر أغراض الشعر، ولكن يشترط فيها أن تلتقى مع الإسلام ومقاصده، وأن تكون صادرة عن شعور وإحساس إسلامى. كالحفاظ على العقل،

---

١ - راجع: منهج الفن الإسلامى للأستاذ محمد قطب ١٧٧-١٧٨

والنسل، والمال، والنفس، والدين.

فهذه هى الكليات الخمس التى قصد الإسلام إليها وتكفل بحفظها، فكل شعر يلتقى معها يمكننا أن نجعله من الشعر الإسلامى ، ومن مقاصد الإسلام تثبيت الإيمان والدعوة إلى الخير، ونصرة الفقير، ومسألة الحجاب، والدفاع عن المرأة، والدفاع عن اللغة العربية، والدعوة إلى الأخلاق.

بهذا المفهوم يمكننا أن ندخل الكثير من شعر الشعراء فى العصر الحديث والشعراء المعاصرين فى إطار معنى الشعر الإسلامى طالما كان هذا الشعر صادرا عن عاطفة دينية وإحساس إسلامى، والدين أمر فطرى فى النفس الإنسانية، وحينما تهب نسماته الندية على النفوس الخيرة تهتز طربا، وتشع نورا، وتتدفق حكمة، كما أن الأيمان يستيقظ بالأحداث ويتجدد بالعبادة، فيقوى عند بعض الشعراء، ويسيطر على معظم تفكيرهم بحكم البيئة والثقافة والإستعدادات الخاصة، فتطغى بذلك على نتاجهم الشعرى، فيصبح من الممكن أن نطلق على الشاعر الذى من هذا النوع «شاعرا دينيا» كما نسمى بعض الشعراء «شعراء الغزل» أو «شعراء المراثى» فى حين أن لهم ألوانا أخرى. (١)

والشعر الإسلامى بذلك يأتى على صور مختلفة، وأقدار متفاوتة تتناسب وحظ الشاعر من التدين، ومدى اهتمامه بشئون المجتمع الذى يعيش فيه من الوجهة الدينية.

١- العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث للأستاذ سعد الدين الجيزاوى:٢٤٥-٢٤٦

والأدب الإسلامى بصورته هذه يخدم الحياة خدمة جليلة، ويقدم للمجتمع وظائف عظيمة، فهو يعالج مشكلات المجتمع، وآماله، وآلامه، ويصور الصراع الطبقى والاجتماعى، ولكنه يضعهما فى مكانهما ولا يغلو ولا يفرط. (١)

وقد يكون منشأ الشعر الإسلامى ذاتية الإنسان المفطورة على الدين مثل شعر المتصوفة، وأصحاب الحب الإلهى، أو من عوامل خارجية تثير هذه الحاسة الكامنة فتحركها وتثير شجونها، كشعر الدفاع عن العقيدة، والمدائح النبوية، وشعر المناسبات الدينية، وشعر التفكر بآلاء الله ونعمه، أو كالذى يتعلق بقضايا المجتمع عامة من فقر، وبؤس، وترف، وغنى، وحرب، وسلام، وأخلاقيات إلى ماهنالك مما يعرف فى المجتمعات.

وأيا كان منشأ ذلك الشعر الإسلامى فإنه يجب أن ينبع هذا الشعر من عاطفة قوية وأن يكون فى حقيقته صدقا فى الشعور، وواقعية فى الإحساس.

لقد رافق الشعر الإسلامى الدعوة الإسلامية منذ أن ظهرت وبدأت تجابه مشركى قريش، وتقارعهم الحجة بالحجة، وتدعوهم إلى الإيمان والإسلام، وكان للأسلام شعراؤه الذين أخلصوا لهذه الدعوة الحقة من أمثال: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وخبيب بن عدى، وعبد الله بن جحش، وصفية بنت عبد المطلب التى رثت أخاها حمزة يوم أحد.

وكان عليه الصلام والسلام يقول فى شعر حسان وفى شعر

١ - راجع: الأدب فى خدمة الحياة والعقيدة للأستاذ عبد الله العريشى: ١١٣

كعب رضى الله عنهما «لهذا أشد عليهم من وقع النبل» (١)

ولقد استمر هذا الشعر الإسلامى حقبة من الزمن إلى أن قامت الفتنة الكبرى بين المسلمين فى أواخر عهد الخلفاء الراشدين فانقسم الناس شيعا وأحزابا، واتخذوا من الشعر وسيلة للتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم، والمدافعة عنها، وإبراز عواطفهم نحو مايدعون إليه، فكان شعر الشيعة، وشعر الخوارج، ثم تحول هذا الشعر العقائدى إلى شعر سياسى بين كل من العلويين والأمويين، ثم العلويين والعباسيين،

استمر هذا الشعر حقبة طويلة إلى أن ألمت بالعالم الإسلامى مصائب كبرى، وبدأت أجزاؤه تسلب وتقطع، بقعة إثر بقعة على أيدى الصليبيين المهاجمين الذين هددوا العقيدة الإسلامية والوطن الإسلامى بهجماتهم المتتالية على المشرق والمغرب، فتأثرت نفوس الشعراء بهذه الحوادث فكانت قصائدهم الإسلامية الرائعة كالنونية التى قالها أبو البقاء الرندى يرثى بها بلاد الأندلس ومجد الإسلام:

لكل شئ إذا ما تم نقصـــــان .. فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الأمور كما شاهدتها ـ دول .. من سره زمن ساءته أزمـــان

وهذه الدار لاتبقى على أحـــد .. ولا يدوم على حال لها شـأن(٢)

ثم شاعت أشعار المديح والغزل الصوفى على أثر الهجمات

١- الأغانى ترجمة حسان:٤/١٤٧، ترجمة كعب:١٦/١٧٠

٢-نفح الطيب للمقّري: ٦/٢٣٢-٢٣٤

المتتالية من مغولية وصليبية، وانحرف الناس عن جادة الإسلام فى أخلاقهم ومعاملاتهم، كما كان فى شعر البوصيرى، وابن الوردى، وصفى الدين الحلّى.(١)

إلى أن كان العصر الحديث، ونهض بالشعر العربى محمود سامى البارودى، فظهرت بعض المحاولات المشرقة فى الشعر الإسلامى بكافة جوانبه التاريخية، والسياسية، والاجتماعية، لدى عديد من الشعراء من أمثال: أحمد شوقى، وحافظ ابراهيم، وأحمد محرم، وأبى ريشة.

من هذا العرض السريع لتاريخ الشعر الإسلامى نرى أن الشعر تأثرت موضوعاته بالأحداث الاجتماعية القائمة فى كل عصر، كما نرى أنه عالج مشكلات القصيدة وقضاياها، ومشكلات الحياة والمجتمع، ودعا إلى الأخلاق والأعمال الخيرة، ونبذ المنكرات والمعاصى، وحض على كل فضيلة، وهجم كل رذيلة، ورفض ماكان ينافى القصيدة وأهدافها.

١- قصة الأدب فى العالم لأحمد أمين، زكى نجيب محمود: ٢/٤٦٤-٤٧١

المبحث الثاني :القضايا الأجتماعية

عالج حافظ ابراهيم فى شعره الإجتماعى القضايا التى تشكل خطرا على الإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر، والتى تفوض المجتمع الإسلامى، وتحوله إلى مجتمع متحجر جاهل، يخيم عليه الظلم، وتنتشر بين أبنائه الأدواء القاتلة، وتقوده الأهواء المهلكة، عبر حافظ عن تلك القضايا بعاطفة قوية، وتصوير رائع، وتعبير صادق، من خلال تجربة حقيقية عاشها فى طفولته، وفى شبابه، وفى شيخوخته، وتتلخص هذه القضايا فيما يلى:

١ – مشكلة الفقر والأيتام:

اهتم حافظ بهذه القضية اهتماما بالغا، فأخذ على عاتقه أن يجند شعره لنصرة الضعيف، ومساعدة الفقير، وإغاثة الملهوف، والأخذ بيد اليتيم، وإنقاذ البؤساء والمنكوبين، لأنه آمن بهذه المبادىء الإنسانية التى حض عليها الدين الإسلامى، ولأنه ذاق مرارة الفقر، وتجرع كأسه منذ طفولته، فهو ابن الطبقة الكادحة التى غفلت ـ أو تعمدت أن تغفل ـ عنها أعين الحكام، وتركتها تشقى لتعيش.

واستيقظ فى فؤاده ذكرى الماضى الأليم أيام كان طفلا اغتالت يد المنون والده، وتركته مع والدته الضعيفة عالة على خاله الذى لم يكن حاله بأحسن حال من أفراد الشعب، فاضطر إلى الرحيل عنه وخاصة بعد أن شعر بضيق خاله منه، بعد أن أصبح شابا يافعا، عاطلا عن العمل، فعزم على مغادرة منزل خاله بعد أن ترك له هذين البيتين:

ثقلت عليك مؤونتى .٠. إنى أراها واهية

فافرح فإنى ذاهـــب .٠. متوجه فى داهية (١)

لم يولد حافظ ابراهيم على فراش وثير، يشعر فيه طراوة الدنيا ونعيمها، ولم يقلب بين يديه الحلى والنقود الذهبية، كما فرح ببريقها أمير الشعراء، وشاعر الأمراء أحمد شوقى حينما كان طفلا(٢)، إنما ولد على (سفينة) ترسو على شاطىء النيل أمام بلدة (ديروط) فى الصعيد، تلك السفينة التى سمح لوالده ـ المهندس الذى يشرف على قناطر ديروط ـ بسكناها من قبل الرجل الواسع الثراء (محمود باشا سليمان) سيد ساحل سليم فى الصعيد، وأحد كبار الأقطاعيين.

ولم ينس حافظ ابراهيم لمحمود باشا سليمان هذه اليد البيضاء التى منّ بها على والده، فقال حينما رثاه:

مسدى الجميل بلا منّ يكدره .٠. ومكرمُ الضيف أمسى ضيف رضوان

وختمها بقوله:

كم منحة لك «يامحمود» عند أبى .٠. بشكرها لك عند الموت أوصانى(٣)

هذه العوامل جميعها التى عاشها حافظ ابراهيم، وتأثر بها ألهبت عاطفته تجاه أبناء وطنه الفقراء والأيتام، فكان شاعرهم الذى جسد آلامهم، وصور معاناتهم، ودعا إلى نصرتهم والتعاطف معهم،

١- مقدمة ديوان حافظ: ٥٨

٢- راجع: شوقى شاعر العصر الحديث للدكتور شوقى ضيف: ١٠

وحياة حافظ لأحمد محفوظ: ٦

٣- الديوان: ٢/٢٣٧

رغبة منه فى إنقاذ هذه الطبقات الدنيا من براثن الفقر، واثار التشرد والإنحلال، وأيد الجمعيات الخيرية، ودور الرعاية بأعمالهم الإنسانية، مباركا ومهنئا، ومبشرا الضعفاء بحياة كريمة:

أيها الطفل لك البشرى فقد .٠. قدر الله لنا أن ننشـــــرا

قدر الله حيـــــــاة حرة .٠. وأبى ســـبحانه أن تقبرا

لاتخف جوعا ولا عريا ولا .٠. تبك عيناك إذا خطب عرا

لك عند البرّ فى ملجأه .٠. حيث تأوى خاطر لن يكسرا (١)

ودعا الناس إلى تأييد هذه الجمعيات بالقول والعمل، وبذل المال:

أيدو كل مجتمع قام للبـ .٠. ـــرّ بجاه يظله أو بمال(٢)

لقد اتخذ حافظ من هذا المبدأ موضوعات شعره، مؤمنا بحق المسلم على أخيه المسلم، وبحق المسلم على أخيه كإنسان، وبحق الإنسان تجاه أخيه الإنسان، فالشعب كل لايتجزأ، كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

لقد كانت موضوعات البؤس والفقر واليتم، والحرمان، منابع ثرة لخيال حفاظ الذى لايطيب له الشعر إلا وهو محزون.

تقوم جمعية رعايةالأطفال، فينظم لها قصيدة رائعة، يبدأها بوصف فتاة بائسة جالسة على قارعة الطريق، كالشبح الهائم، أو كطيف الخيال، لشدة نحولها وشحوبها، باتت وحيدة تحيط بها

١- الديوان: ٣٠٧/١

٢-الديوان: ٣١١/١

النوائب بلا راع ولا نصير، ترسل آهات حارقة، تكاد تضيء فحمة الدجى المظلم، فيتساءل عما بها، ويسائل نفسه، لم تأثر بهيئتها !!

ولماذا أحس بآلامها !! ثم يدنو منها ليسمع صوتها يقع فى أذنيه كالنبال المؤلمة، فيسألها من أنت؟ وهى أشبه ماتكون بالأطلال لشدة نحولها وضآلتها، فتجيبه متحركة ببطء، وفى قلبها خوف ووجل، بأنها بائسة حامل، لم تذق طعم النوم منذ ليال، فقد مات والدها، وماتت أمها، ومضى على أثرهما عمها وخالها، ثم تريد أن تتم حديثها، فيحبسه حياؤها، ويعقد الخجل لسانها، وهنا أدرك شاعرنا بحسه المرهف ما تعانيه هذه الفتاة، فحنا عليها، لأنها أشبهته بؤسا وحرمانا:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيـــال .٠. لا بل فتاة بالعراء حيـــالى
أمست بمدرجة الخطوب فما لها . ٠ . راع هناك ومالهـــا من والى
حسرى تكاد تعيد فحمة ليلهـــا .٠. نارا بأنات ذكين طـــــوال
ماخطبها عجبا، وماخطبى بهـــا .٠. مالى أشـاطرها الوجيعة مالى!!
دانيتها ولصوتها فى مســـــمعى .٠. وقع النبال عطفن إثر نبـــال
وسألتها من أنت؟ وهى كأنهـــا .٠. رسم على طلل من الأطلال
فتململت جزعا وقالت: حامـل .٠. لم تذق طعم الغمض منذ ليالى
قد مات والدها وماتت أمهـــــا .٠. ومضى الحمام بعمها والخـال
وإلى هنا حبس الحياء لسانهـــا .٠. وجرى البكاء بدمعها الهطـــال
فعلمت ماتخفى الفتاة وإنمـــا .٠. يحنو على أمثالها أمثـــــــالى(١)

١ - الديوان: ١/٢٧٥، ٢٧٦

لقد استطاع بعاطفته الجياشة وصدق إحساسه أن يصف هذه البائسة وصفا يحرك به مشاعر الناس، أو ينقل إليهم صورة البؤس ليشعروا بها، ويدركوا آلامها.

ثم يمضى حافظ فى قصيدته مجسدا ماتعانيه هذه السيدة، ومصورا لها، فهى ميت بعث من قبره، لا تستطيع النهوض والوقوف على قدميها، فيحمل هيكلها العظمى وكأنه يحمل عود خلال، وأسرع الخطا بها نحو دار رعاية الأطفال، لينقذ بائسين: أحدهما طارق باب الحياة، والآخر مؤذن بزوال. لقد أبكياه، لأنهما أشبهاه بؤسا وحرمانا، وما أن يصل دار رعاية الأطفال حتى يهب الجميع لنجدتها، فيتركها فى أهلها، ويعجز عن شكر الذين ملأت الرحمة قلوبهم، وتسابقوا نحو العمل الصالح الذى يبقى ذخرا للأنسان عند الله رب العالمين:

قلت: آنهضى قالت: أينهض ميت .٠. من قبره ويسير شن بالـــــى
فحملت هيكل عظمها وكأننى .٠. حملت حين حملت عود خلال
وطفقت أنتهب الخطا متيـــمما .٠. بالليل (دار رعاية الأطفـــال)
أمشى وأحمل بائسين: فطـــارق .٠. باب الحياة ومؤذن بـــــزوال
أبكيهما وكأنمـــــا أنا ثالث .٠. لهما من الإشفاق والإعـــوال
وطرقت باب الدار لامتهيـــبا .٠. أحدا ولا مترقبا بســـــؤال
طرق المسافرآب من أســـفاره .٠. أو طرق رب الدار غير مبـــالى
وإذا بأصوات تصيح: ألا افتحوا .٠. دقات مرضى مدلجين عـــجال

وإذا بأيد طاهـــــرات عودت ..٠ صنع الجميل تطوعت فى الحال

جاءت تسابق فى المبرّة بعضها ..٠ بعضا لوجه الله لا للمـــــال

فتناولت بالرفق ما أنا حامـــل ..٠ كالأم تكلأ طفـــــلها وتوالى

ودعتها وتركتها فى أهلهـــا ..٠ وخرجت منشـــرحا رضى البال

ثم يثنى على هذه الدار فأهلها يسهرون ليخففوا عن ذوى الآلام آلامهم، ويحيطون اليتيم بعطفهم، فهم له أهل، وهم حماته من عوادى الزمن، وهم ربيع للفقراء، والبؤساء:

لله در الساهرين على الألى ..٠ سهروا من الأوجاع والأوجال

القائمين بخير ماجادت به ..٠ مدنية الأديان والأجـــيال

أهل اليتيم وكهفه وحماته ..٠ وربيع أهل البؤس والإمحال(١)

ويختم قصيدته هذه ـ ككل قصائده الاجتماعية ـ بدعوة مؤمنة كريمة إلى الخير والإحسان، ليحرك بها قلوب السامعين، لتنقذ هؤلاء الضعفاء، وتقدم المال عونا لهم، ولهم من الله على ذلك الجزاء الأوفى:

لاتهملوا فى الصالحات فإنكم ..٠ لاتجهلون عواقب الإهمال

إنى أرى فقراءكم فى حاجـة ..٠ لو تعلمون ـ لقائل فعال

فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم ..٠ ميدان سبق للجـــواد النّال

والمحسنون لهم على إحسانهم ..٠ يوم الإثابة عشرة الأمثـــال

وجزاء المحسنين يجـــــل عن ..٠ عدّ وعن وزن وعن مكيال(١)

---

١ - الديوان: ١/٢٧٨، ٢٧٩

وفى قصيدة يحاور فيها خليل مطران يأسى حافظ كل الأسى للفقير الذى يفترسه الجوع فى قلب حاضرة الحواضر ـ يعنى مصر ـ يقول فى مرارة ليثير همم الأغنياء نحو هؤلاء الفقراء:

هذا صبى هائـــــم .٠. تحت الظلام هيام حائـر
أبلى الشـــقاء جديده .٠. وتقلمت منـــه الأظافر
أبصرت هيكل عظمه .٠. فذكرت ســكان المقابر
عجبا أيفرســه الطوى .٠. فى قلب حاضرة الحواضر
كم مثله تحت الدجى .٠. أســوان بادى الضر طائر
خزيان يخرج فى الظلا .٠. م خروج خفاش المغــاور
متلفعا جلبابـــــه .٠. مترقبا معروف عابـــر(١)

وفى إحدى قصائده يدعو أهل البر والخير إلى إنقاذ الأطفال الفقراء، والأخذ بأيديهم، لأن فى شقائهم شقاء المجتمع، وفى رعايتهم سعادة الأمة ونهضتها، فربما كان فيهم مصلح أو مغامر يزود عن حياض هذا الوطن:

أيها الطفل لاتخف عنت الدهـ .٠. ـر ولا تخش عاديات الليالى
قبض الله للضعيف نفوســـــا .٠. تعشق البر من ذوات الحجال
أنقذوا الطفل إن فى شقوة الطفـ .٠. ـل شقاء لنا على كل حال
إن يعش بائسا ولم يطوه البـــؤ .٠. س يعش نكبة على الأجيال

---

١ – الديوان: ١/٢٩٣، ٢٩٤

رب بؤس يخبث النفس حتى .. يطرح المرء فى مهاوى الضلال
أنقذوه فربما كـــان فيـــه .. مصـــــــلح أو مغامر لايبالى
ربمـــا كان تحت طمريه عزم .. ذو مضاء يدك شـــــم الجبال
رب سر قد حل جسم صغير .. وتأبى على شـــــديد المحال(١)

ومن أجل الفقراء والضعفاء كان يدعو فى قصائده المختلفة إلى الإنفاق وبذل المال، وأداء الزكاة التى أمر الله بها المسلمين، ومن يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له أضعافا كثيرة:

فأعينوهم فهم إخوانـــكم .. مسهم ضر ونابتهم غـــير
أقرضوا الله يضاعف أجركم .. إن خير الأجر أجر مدخر(٢)

وهو يحاول دائما أن يبين للناس مخاطر الفقر، وعواقب البخل، ومآسى الأيتام، ويحذر المجتمع من هذه الآفات، لأنها تفتت كيان الأمة، وتمزّق وحدتها، وتجعل البشرية ذئابا يأكل بعضها بعضا، ويحضهم على إنقاذ الضعفاء والفقراء من بؤس الفاقة، وذل المتربة، يقول على لسان فتاة بعد أن وصف قطارا ـ وقد وقفت فى الناس خطيبة على إثر حادث وقع لطفل:

دعوة البائس المعذّب ســـــــورٌ .. يدفع الشر عن حياض الكرام
وهى حرب على البخيل وذى البغـ .. ـى وسيف على رقاب اللئام
إن هذا الكريم قد صـــان عرضى .. وحمانى من عاديات السـقام

١- الديوان: ١/٣١٠، ٣١١
٢- الديوان: ١/٣٠١

عال طفلي وعالني وحبـــاني ٠٠ بكســـــاء وبَدْرة وطعام
وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤ ٠٠ س وقاموا فى الله خير القيام
وأقاموا للبـــــــرّ دارا فكان ٠٠ خيـــر ورد يؤمه كل ظامى
ملئت رحمة وفاضت حنـــانا ٠٠ فهى للبائسات دار السلام(١)

ثم يتحدث عن الزكاة وحكمة تشريعها وأنها ركن من أركان الإسلام، ويتحدث عن أهمية إعطائها لفقراء المسلمين، حتى لايشكو الجوع معدم أو يتصدى لارتكاب الجرائم والآثام من أجل الحصول على لقمة العيش بالعنف والقوة غير عابىء بشريعة أو بعهد، لأن أغنياء المسلمين حرموه حقه الذى فرضه الله له فى أموالهم:

وعَلِمنا أن الزكاة سبيل اللـ ٠٠ـه قبل الصلاة قبل الصـــيام
خصها الله فى الكتاب بذكر ٠٠ فهى ركن الأركان فى الإسلام
بدأت مبدأ اليقـــين وظلت ٠٠ لحياة الشعوب خير قـــــوام
لو وفى بالزكاة من جمع الدنـ ٠٠ يا وأهوى على اقتناء الحكـــام
ماشكا الجوع معدم أو تصدى ٠٠ لركوب الشـــــــرور والآثام
راكبا رأسه طريدا شـــــريدا ٠٠ لايبالى بشـــــرعة أو ذمام
سائلا عن وصية الله فـــيه ٠٠ آخذا قوته بحد الحـــــسام(٢)

لقد كان يؤمن حافظ بحق هؤلاء الضعفاء والأيتام فى الحياة، ويأمل فيهم كل خير لنهضة البلاد، ولو أنبتهم المجتمع

١- الديوان: ٢٨٦/١
٢- الديوان: ٢٨٧

الإسلام منبتا حسنا، لخرج منه رجال يفيدون الأمة فكراً، وأدباً، وسياسة، لأن البؤس يخفى كثيرا من المواهب، ويطفىء العقول النيرات.

إن الذين يرعون اليتامى والفقراء ويعطونهم حقهم الذى شرعه الله لهم وجعله حقا معلوما فى أموال الأغنياء. إن هؤلاء سينالهم من ربهم أجر كبير، وثواب عظيم، لأنهم اشتروا الآخرة الباقية بالدنيا الزائلة:

كم طوى البؤس نفوسا لو رعت .·. منبتا خصبا لكانت جوهرا
كم قضى العدم على موهبـــة .·. فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعـــــا .·. حسبه من ربه أن يؤجرا
إنمـــا تحمـــد عقـــبى أمره .·. من لأخراه بدنياه اشترى(١)

٢ – الحجاب والسفور:

تعرض المجتمع العربى الإسلامى فى الحقبة التى عاشها حافظ ابراهيم إلى تيارات غربية، ومبادئ مختلفة، ليس للمسلمين عهد بها من قبل، إنما هبت عليهم من الغرب، فاستقبلها الشرق، واستطاب ريحها، واحتفى بها احتفاءً بالغاً.

ومن أهم هذه التيارات التى تعرض لها المجتمع المسلم «قضية الحجاب والسفور» التى قاد دعوتها (قاسم أمين) وانقسم الناس أمامها ثلاث فرق: فرقة مؤيدة، وثانية معارضة، وثالثة اتخذت طريق الوسط، وتكثر الملاحاة بين الناس فى هذه القضية، ويلتفت

---

١ – الديوان: ٣٠٩/١، ٣١٠

إليها حافظ ليتخذ منها بحسه المرهف موضوعا لشعره، ويبين فيه موقفه الوسط، ويبين فضل المرأة فى المجتمع، لأنه كان يعتقد أن النهضة لاتقوم إلا على سواعد الرجال، ومساندة النساء فى هذه الأمة، لتستعيد تاريخها المشرق، ومجدها التليد، وللمرأة رسالتها فى الحياة، رسالة قوامها الدين والأخلاق، والعلم، والأدب فعليها أن تؤديها حق الأداء، وتلقنها الأبناء، فهى أستاذة الأساتذة:

الأم أستاذ الأساتذة الألى .٠. شغلت مآثرهم مدى الآفاق(١)

لم يسر حافظ مع تيار المؤيدين للسفور الذين يدعون للتكشف والانحلال، لأنه كان يعلم حكم الله وحكمته تجاه هذه القضية، كما يعلم مضارها الكبرى وفتنتها العظمى التى لاتعود على المجتمع إلا بالشر والهلاك:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا .٠. بين الرجال يجلن فى الأسواق

كما لم يتشدد فى هذه القضية تشددا يجعله يظلم المرأة ويحرمها حقها فى الحياة، إنما سلك مسلكا وسطا، مبينا طريقه من وحى الشريعة الغراء، وتعاليم (الإمام محمد عبده) الذى كان يرى أن من محاسن الإسلام مساواته بين المرأة والرجل فى الأمور الجوهرية(٢)

وهذه الفكرة حملها من قبله أستاذه (جمال الدين الأفغانى) حين قال:

«إن المرأة فى تكوينها العقلى تساوى الرجل: فليس للرجل

١- الديوان: ٢٧٩/١

٢- راجع: الإسلام والتجديد: ٢٢١

رأس، وللمرأة نصف رأس، والتفاوت الذى بينهما لم يأت إلا من التربية، وإطلاق السراح للرجل، وتقييد المرأة للبيت، ولتربية الجيل، ومهمتها فى هذا أهم وأسمى مما يقوم به الرجل من كثير من الصناعات.

ويخطىء من يطلب مساواة المرأة بالرجل فى كل شىء، فلكل وظيفة، وعلى تعاونهما ـ كل فى عمله ـ يقوم المجتمع، ولامانع من أن تعمل المرأة فى الخارج إذا فقدت عائلها، واضطرتها ظروفها إلى ذلك، ولكن بنية صالحة، وذيل طاهر» (١)

يقول حافظ مصورا موقفه بوضوح فى هذه القضية موضحا أن خير الأمور الوسط، وأن الشر كامن فى التضييق على المرأة وكامن أيضا فى إطلاق الحبل على الغارب، وأن الخير كل الخير فى تربية البنات على الفضيلة ومكارم الأخلاق التى يدعو إليها الدين الإسلامى:

من لى بتربية النســـــاء فإنها .. فى الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتهـــــا .. أعددت شعبا طيب الأعراق

الأم روض إن تعهده الحيـــا .. بالرى أورق أيما إيـــراق

أنا لاأقول دعوا النساء ســـوافرا .. بين الرجال يجلن فى الأسواق

يدرجن حيث أردن لامن وازع .. يحذرن رقبته ولامن واقـــى

يفعلن أفعال الرجال لواهيـــا .. عن واجبات نواعس الأحداق

كلا ولا أدعوكم أن تســـرفوا .. فى الحجب والتضييق والإرهاق

---

١ – زعماء الإصلاح لأحمد أمين: ١١٤

فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا .٠ . فالشر فى التضييق والإطلاق

ربوا البنات على الفضيلة إنها .٠ . فى الموقفين لهن خير وثاق(١)

إنطلاقا من هذا المبدأ كان يبارك لها أعمالها الخيرية، ونشاطاتها الإنسانية فى المجتمع ويتجلى ذلك فى كثير من قصائده الإجتماعية.

أما موقفه من دعوة (قاسم أمين) فلم يكن واضحا، لأنه لم يظهر رأيه فيه، وإنما أوكله للأيام يتضح ذلك من قوله فى رثائه:

إن ربت رأيا فى الحجاب ولم .٠ . تعصم فتلك مراتب الرسل

الحكم للأيام مرجعه .٠ . فيما رأيت فنم ولا تسل

فإذا أصبت فأنت خير فتى .٠ . وضع الدواء مواضع العلل

أولا، فحسبك ماشرفت به .٠ . وتركت فى دنياك من عمل(٢)

وكأنما كان حافظ متشككا فى دعوته لا يستبين فيها طريق خير للمجتمع المسلم، وقد أدركنا هذه الأيام التى أوكل حافظ الحكم إليها، ورأينا خطر وخطأ دعوة قاسم أمين.

ولحافظ فى ديوانه القديم قصيدة فى السفور، لم تطبع فى ديوان وزارة المعارف، ولا فى ديوان الهيئة المصرية العامة للكتاب، ولا ندرى سبب ذلك، وقد رأها عبد الحميد سند الجندى تهكما لاذعا بأنصار الحجاب(٣)، إلا أنها لم تكن تهدف إلى ذلك، إنما قصد فيها حافظ الإشارة إلى ضلال وجهل الشعب الذى حاول أن

١- الديوان: ١/١٨٢، ٢٨٣ ٢- الديوان:٢/١٥٦

٣- حافظ شاعر النيل: ٤٢

يرفع من شأنه ويرقيه بعد أن أسدلت ستائر الجهل على عقول أبنائه، فلم يستجب لدعوات المصلحين من هذه القصيدة قوله:

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهـــــم. ٠ .ولم يفقهوا في السفر ماأنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم .٠ . فمن ذا تناديه ومن ذا تعاقـــبه
فلو أن شخصا قام يدعو رجالهـــم. ٠ . لوضع كتاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت في مصر حواء أمـــنا .٠ . يلوح محياها لنا ونراقـــــبه
وفي يدها العذراء يسفر وجهـــها .٠ . تصافح منا من تـــرى وتخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمـــد .٠ .وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا: رفع النقاب محـــــلل .٠ . لقلنا: نعـــم حق ولكن نجانبه(١)

١- الديوان الطبعة القديمة ١٩٢٢ شرح محمد ابراهيم هلال

٣- قضية اللغة العربية:

لاتزال الدعوات الهدامة تستهدف ركائز الأمة الإسلامية وعقيدتها حتى تنال منها، وتتركها فريسة للجهل والاستعمار، وتقضى على بذور النهضة والسيادة الكامنة فيها، فهى حينا تشكك فى كتاب الله، وحينا تفرق بين صفوف الأمة، وحينا تشوه التاريخ الإسلامى.

ومن أخطر هذه الدعوات فى القرن العشرين الدعوة إلى نبذ اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم، واتخاذ العامية بدلا منها، وقد أثار هذه الدعوة (وليام كوكس) سنة١٨٩٣م فى خطابه الذى ألقاه بنادى الأزبكية فى القاهرة(١) وحاول أن يؤيد دعوته بأعمال أدبية فترجم قطعة من (هاملت) ومن (هنرى الرابع) وبعض فصول من الإنجيل، ثم ألف كتابا اسمه (الأكل والإيمان)

وشاء الله أن تأتى كل هذه الأعمال فاشلة هزيلة، اضطر مؤلفها فى كثير من الأحيان إلى اللجوء إلى الألفاظ الفصحى لعجز اللغة العامية.

وقد أيده فى دعواه (مستر ويلمور) أحد قضاة مصر، فى كتاب دعا فيه إلى نبذ الفصحى، واتخاذ العامية لغة كتابة، وكذلك (اسكندر معلوف) الذى جاء من سوريا وناصر هذه الدعوة، ويالأسف لقد وجد من العرب من يؤيد هؤلاء المغرضين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر(سلامه موسى)، (محمد تيمور) (٢)

---

١ - اللغة الفصحى واللغة العامية. مقال نشر فى مجلة الهلال أول يولية ١٩٢٦

٢ - راجع: رميم الروح للأستاذ محمد تيمور

يقول سلامة موسى.

«ولكن نكبتنا الحقيقية هى أن اللغة العربية لاتخدم الأدب المصرى، ولا تنهض به... والفصحى تبعثر وطنيتنا المصرية، وتجعلها شائعة فى القومية العربية، فالمتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب، ويعجب بأبطال بغداد، بدلا أن يشرب روح المصرية، ويدرس تاريخ مصر، فنظره متجه دائما نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق».

لقد كشف هذا المغرض عن أهدافه المسمومة، وكشف النقاب عن وجهه بهذا المقال، وأباح بهدفه الهدام، فهو يريد أن يفصل الشعب المسلم المصرى العربى عن الأمة العربية المسلمة، ليفارق بينه وبين عقيدته وتاريخه وعرقه.

وقد أدرك كثير من الأدباء المسلمين الغيورين على دينهم وعلى عقديتهم الأهداف التى يقصدها هذا المغرض وأمثاله فتصدوا للدفاع عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم من أمثال: محمد صادق عنبر، مصطفى صادق الرافعى، شكيب أرسلان، حافظ ابراهيم، ولعل حافظ والرافعى كانا من أشهر المدافعين عن اللغة العربية.

فالرافعى بحكم نشأته فى بيئة دينية عريقة، وبحكم اعتكافه على قراءه التراث العربى بعامة، والعربى الإسلامى بخاصة، وإعجابه بما فى هذا التراث من روائع، وبعد أن رأى ما رأى مما أعده خروجا على ماينبغى أن يكون فى طرق عرض هذا التراث العربى حتى لايكون هناك منفد يؤدى إلى الطعن فى الدين، أو

التشكيك فى شيء منه... من أجل ذلك تصدى للدفاع عن كل ظاهرة يرى فيها خروجا عن السنن القديم.

وبدأت المعركة بينه وبين طه حسين، وخاصة سنة ١٩٢٣م حينما اشتدت حول كتاب (الشعر الجاهلى) لطه حسين.

ومن أبرع ماكتب (الرافعى) فى الدفاع عن (اللغة العربية)، ذلك المقال القيم «الجملة القرآنية» (١) ردا على اقتراح أرسله أحد الكتاب الذين يحررون الصحف العربية التى تصدر فى أمريكا عندما نشر مقالات «رسائل الأحزان» وقد طلب منه هذا الكاتب أن ينحى الجملة القرآنية، والحديث الشريف عما يكتب لتكون لكتابته ميزة خاصة تحمل أسلوبه الخاص، وتجعله فى الأدب مذهبا وحده!!

فطن الرافعى إلى ما وراء هذا الاقتراح، فتأكدت عنده الفكرة بأن كل طعن فى اللغة العربية الفصحى يؤدى إلى إبعادها عن القرآن، وهذا هو ماقصده دعاة التجديد فى اللغة، ومما جاء فى هذا المقال قوله: «على أنى لا أعرف من السبب فى ضعف الأساليب الكتابية، والنزول باللغة دون منزلتها إلا واحدا من ثلاثة: فإما مستعمرون يهدمون الأمة فى لغتها وآدابها، لتتحول عن أساس تاريخها الذى هى أمة به ولن تكون أمة إلاّ به، وإما النشأة فى الأدب على مثل الترجمة فى الجملة الإنجليزية، والانطباع عليها، وتعويج اللسان بها، وإما الجهل من حيث هو» (٢)

---

١ - راجع: تحت راية القرآن: ٢٦

٢ -المرجع السابق: ٢٨

لقد أدرك الرافعى دعوة الهدامين فرد عليها بأحسن بيان، وأدمغ حجة، والقارىء لمؤلفاته يحس بتلك الشخصية المؤمنة القوية الإيمان بالإسلام وكتابه ولغته. (١)

ولم يكن حافظ إبراهيم أقل حماسا من الرافعى تجاه قضية اللغة العربية، وهو الشاعر الغيور على دينه وتاريخه ولغته، وهو الذى كان يدعو لوحدة الشرق المسلم، والحفاظ على تاريخ العرب، لذلك آلامه وحز فى نفسه ـ وهو المرهف الحسن الصادق العاطفة ـ أن يسمع مثل هذه الدعوات فى دار الإسلام، وبين أظهر العرب، واستاء من الاستعمار الذى يخطط لتشتيت شمل هذه الأمة، وتمزيق روابطها، وفصلها عن دينها، وتاريخها، وثقافتها يقول حافظ.

«واعلم ياولدى أن عز الأمم موقوف على عزّ اللغات، وأن حياة اللغة مستمدة من حياة آدابها.. بعث صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم فى عهد كان ربيعا للغة، وآدابها، نضرت فيها الألفاظ، وأورقت المعانى، وقد مات من أمة العرب كل شىء إلا شعورها ولسانها، مات منها كل شىء، ولم ينقصها من مواد الحياة شىء، فجاء الكتاب يخاطب منهم ذلك الشعور الحى، ويكلم ذلك الوجدان اليقظ، فسرت فى نفوسهم الدعوة سريان الكهرباء، ووقع منهم مغزى الآية فى الأفئدة، قبل وقوع لفظها فى الأسماع... هذا هو شأن الدولة التى أدعوكم إلى تأييدها، وهذا هو

---

١ - راجع مؤلفات الرافعى: تحت راية القرآن، وحى القلم، تاريخ آداب العرب، إعجاز القرآن.

أثرها فى النفوس، فلولاها مارفعت فى الغرب رأسها، ولأخاف الناس بأسها» (١)

ويتجلى دفاعه أيضا عن اللغة العربية فى شعره الاجتماعى فقد عالج حافظ هذه القضية التى تشكل خطرا على الإسلام وعلى المسلمين، ووجه سهامه إلى أولئك الذين اتهموا هذه اللغة بالعجز والنقص، ودعوا إلى اتخاذ اللغة العامية لغة كتابة وتخاطب، لفصل الأمة المسلمة عن ماضيها، وعن شريعتها.

لقد نظم حافظ قصيدة رائعة على لسان اللغة العربية وهى تنعى حظها بين أهلها، تناقلتها ألسن أهل الضاد من المشرق إلى المغرب، ولقنوها أبناءهم لينمو فى نفوسهم حب هذه اللغة العظيمة، وقد استهلها بقوله:

رجعت نفسى فاتهمت حصانى .٠. ونادیت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى .٠. عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى .٠. رجالا وأكفاء وأدت بناتى

ويبين فيها مقدرة اللغة العربية على شمول الألفاظ قديمها وحديثها، كماوسعت من قبل كتاب الله الكريم لفظا وغاية وعبرا وعظات، وهى كالبحر الكامن فى أحشائه الدرر والجواهر:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية .٠. وماضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة .٠. وتنسيق أسماءٍ لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن .٠. فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

١- ليالى سطيح: ٤٠، ٤١

وتأسى هذه اللغة على مصيرها الذى يريده الغرب لها، وبين أبنائها من يستطيع الدفاع عنها، والذود عن حياضها، حتى لاتموت وهى فى ريعان شبابها، وتقول لأبنائها لو استنبأتم الغيب بزجر الطير كما كان يفعل العرب، لعلمتم مايجره موتى عليكم من السقوط والانحلال، وتهيب بهم أن يكونوا كآبائهم وأجدادهم أبناء الجزيرة العربية الذين عرفوا قدرها ورفعوا شأنها، وعلى الرغم من أنهم صاروا عظاما نخرة فهى لاتزال تفاخر الغرب بهم إعترافا بفضلهم، ووفاء لهم:

فياويحكم أبلى وتبلى محاسنى .٠. ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فإننى .٠. أخاف عليكم أن تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة .٠. وكم عز أقوام بعز لغات
أيطربكم من جانب العرب ناعب .٠. ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما علمتم .٠. بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما .٠. يعز عليها أن تلين قناتى
حفظن ودادى فى البلى وحفظته .٠. لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق.٠.حياء بتلك الأعظم النخرات

ثم تتحدث عن لغة الجرائد والصحف وخطورتها عليها لما فيها من ركاكة وضعف، ولأنها لغة لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التى تحفظها من التغيير كما هو الشأن فى اللغة العربية، وإنما هى لغة سرى فيها غموض الغرب كما يسرى لعاب الأفاعى فى الماء العذب فأشبهت الثوب الخلق الذى تعددت ألوانه

من كثرة رقعه:

أرى كل يوم بالجـــرائد مزلقا .٠. من القبر يدنينى بغير أناة
وأسمع للكتاب فى مصر ضجة .٠. فأعلم أن الصائحين نعاتى
أيهجرنى قومى ـ عفا الله عنهم .٠. إلى لغة لم تتـصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى.٠ .لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة .٠. مشكلة الألوان مختلفات

وفى نهاية القصيدة تهيب اللغة العربية بأبنائها أن ينقذوها من مؤامرات الغرب حتى تعود لها الحياة كسالف مجدها، وإلا سيكون مصيرها الموت الذى لاحياة بعده:

إلى معشر الكتاب والجمع حافل .٠ .بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فإما حياة تبعث الميـت فى البلى .٠. وتنـــــبت فى تلك الرموس رفاتى
وإما ممات لا قيامـــــــة بعده .٠. ممات لعمرى لم يقس بمـــمات(١)

والقصيدة ذات طابع مؤثر يستصرخ فيها حافظ أصحاب العزة والكرامة لإنقاذ لغة القرآن الكريم من الضياع، ولقد عرف الأدباء والشعراء فضل حافظ ابراهيم وجهوده من أجل الحافظ على اللغة العربية. فهذا أحمد شوقى أمير الشعراء يسجل له ذلك الفضل فى قصيدته التى رثاه بها، فلنستمع إليه وهو يعدد محامده:

لبنان يبكيه وتبكى الضاد من .٠. حلب إلى الفيحاء إلى صنعاء
عرب الوفاء وفوا بذمة شاعر .٠. بانى الصفوف مؤلف الأجزاء

١- الديوان: ٢٥٣/١ ـ ٢٥٥

ياحافظ الفصحى وحارس مجدها .٠. وإمام من نجلت من الفصحاء

مازلت تهتف بالقديم وفضـــله .٠. حتى حميت أمانة القدماء(١)

٤ – الخلاف الدينى:

التفرقة الدينية من أخطر العوامل الهدامة فى المجتمعات التى تحوى أقليات مختلفة لعقائد عدة، لأن للعقيدة مقاما خاصا فى نفس كل فرد، لذا فهو يثور إذا ماهوجم فيها، أو تعرض أحد لكرامتها، ولو كانت عقيدته فاسدة.

لقد أدرك حافظ هذه القضية وخطورتها على المجتمع، فدعا إلى احترام جميع العقائد السماوية التى احترمها الإسلام، ونبذ الخلاف الذى ليس وراءه إلا تفكك الأمة وضياع المجتمع، ولذلك يألم حين يرى مؤامرات المستعمرين تفلح فى التفرقة بين عنصرى الأمة المسلمين والأقباط، ويستصرخ ولى الأمر وكان حينئذ «الخديوى عباس» لإدراك عرا الأمة قبل أن تنفصم، مظهرا مافى الإسلام من تسامح تجاه أهل الكتاب، ومبينا سوء فهم الناس لجوهر الأديان، ويعجب من موقف الأقباط، فهم يخشون المسلمين وكيدهم ولايبادلونهم ودّا بودّ. ويأمل فى أن يخلص الأقباط للمسلمين كما يخلص المسلمون لهم:

مولاى أمتك الوديعة أصبحت .٠. وعرا المودة بينها تتفصـــم

نادى بها القبطىّ ملء لهاتـه .٠. أن لاسلام وضاق فيها المسلم

وهم أغار على النهى وأضلها .٠. فجرى الغبىّ وأقصر المتـــعلم

---

١ – الشوقيات: ٢٤/٣

فهموا من الأديان مالا يرتضـــى .. دين ولايرضى به من يفهم

ماذا دهى قبطىّ مصر فصـــده .. عن ود مسلمها وماذا ينقم

وعلام يخشى المسلمين وكيدهم .. والمسلمون عن المكايد نوّم

ثم يخاطب الأقباط مبينا لهم أننا أبناء وطن واحد وحدتنا الآلام والأحداث، ويقول لهم: إذا أخلصتم للمسلمين فسيبادلونكم إخلاصا بإخلاص وحبا بحب وأنا ضمين لذلك:

قد ضمنا ألم الحياة وكلنـــا .. يشكو فنحن على السواء وأنتم

إنى ضمين المسلمين جميعهم .. أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم

وينادى «الخديو عباس» مؤكدا له أن الأمة فى أشد الحاجة لجميل رأيه حتى ينقذها من المصائب التى تحيط بها، ويناشده أن يجمع بحكمته عنصرى الأمة وأن يزيل مافى القلوب من خلافات وأحقاد:

رب الأريكة إننـــا فى حاجة .. لجميل رأيك والحوادث حوّم

فأفض علينا من سماتك حكمة .. تأسو القلوب فإن رأيك أحكم

واجمع شتات العنصرين بعزمة .. تأتى على هذا الخلاف وتحسم(١)

وكان حافظ يهدف من وراء هذه الدعوة الإنسانية إلى وحدة إسلامية شرقية كبرى تعيد مجد الإسلام الزائل الذى كان يعيش فى ظله المسيحى واليهودى دون أحقاد ولا مكائد:

فتفيئوا ظل الهلال فإنـــــه .. جم المبرة واسع الإحسان

١- الديوان: ١/٢٩١ ـ ٢٩٢

يرعى لموسى والمسيح وأحمد .. حق الولاء وحرمة الأديان

فخذوا المواثق والعهودعلى هدى التوراة والإنجيل والفرقان(١)

ويحلم بهذه الوحدة فى الشرق فيقول:

متى أرى الشرق أدناه وأبعده ..عن مطمع الغرب فيه غير وسنان

تجرى المودة فى أعراقه طلقا .. كجرية الماء فى أثناء أفنـــان

لافرق مابين بوذى يعيش به .. ومسلم ويهودى ونـــصرانى(٢)

وكان يشفق على دول الشرق عامة، والعرب خاصة من أن تمزقهم الخلافات الدينية، وينذرهم بقول أبى العلاء المعرى الذى دعا فيه إلى الطوفان من جديد لتطهر الأرض:

إن دام مانحن فيه من مدابـــرة .. وفتنة بين أجناس وأديـــان

رأيت رأى (المعرى) حين أرهقـه .. ماحل بالناس من بغى وعدوان

لاتطهر الأرض من رجس ومن درن .. حتى يعاودها (نوح) بطوفان(٣)

ولم يكن حافظ متزمتا إنما كانت لد يه صلات مع كثير من المسيحيين وخاصة الأدباء منهم مثل: فارس نمر، وخليل مطران، وچورچى زيدان، والبازجى، ويعقوب صروف، وحبيب مطران، كما كانت له صلات وثيقة بأدباء سوريا ولبنان، وأكثرهم من المسيحيين، ولحظ نبوغهم ونشاطهم فقال:

١- الديوان: ٤٦/١ ٢- الديوان: ١٣٨/١، ١٣٩

٣-الديوان: ١٣٩/١ ـ ١٤٠

«كلما نظرت فى جالية السوريين المسيحيين رأيت بينهم رجالا إذا هزوا أقلامهم أمطرت ذهبا، وإذا خطبوا بها سطرت عجبا، ولو شئت أن أعد منهم عددت كثيرا، هؤلاء أصحاب المقتطف، ودائرة المعارف، والضياء، والهلال، والجامعة، وهؤلاء أصحاب الصحف اليومية وغيرها»(١)

وكان يؤلمه مايرى عليه المسلمين فى سوريا من تخلف وتقاعس، فكلما نظر إليهم لايرى بينهم «غير البائع، والسمسار، ورائض الخيل والجزار» (٢)

١- ليالى سطيح: ١٢

٢- المرجع السابق

المبحث الثالث: الخصائص الفنية

١ـ سمو العاطفة: حظى شعر حافظ بعاطفة قوية فياضة، عامة والأدب الذى ينبعث عن عاطفة عامة ويبعث عليها خير من الأدب الذى ينبعث عن عاطفة شخصية ويبعث عليها، كما أن عاطفته ليست من هذا النوع الذى يذوب رقة فى غزل أوهياما فى حب، فإن هذا النوع قد كثر حتى ملّ، وهو فى كثير من الأحيان أجوف، وهو فى كثير من الأحيان نتاج عاطفة مريضة، فليس من الخير أن يبيع الإنسان عواطفه بهذه السهولة وهذا الرخص.

فميزة عاطفة (حافظ) فى شعره ـ كما يقول أحمد أمين ـ عمومها وقوتها، وإن شئت فقل: وجدتها، فلم نعرف شاعرا عربيا قبله، ولا معاصرا له أفاض فى العاطفة الوطنية والاجتماعية إفاضته.(١)

لقد كان الشعب المكافح فى عسرته أحوج مايكون إلى شاعر كحافظ يحمل بين جنبيه هذه العاطفة الجياشة كى يلهب حماسه، ويجمع صفوفه، ويبصره بأحواله، ويذكره بأمجاده، ويعالج أدواءه، ويحى دارس الآمال فيه.

لقد وقف حافظ فى شعره موقف الصحافة الوطنية، والخطباء الوطنيين، وقادة الرأى الاجتماعيين، يغشى مجالس كل هؤلاء، ويتسرب من أرواحهم، ويستمد من وحيهم، ويغذى عواطفه من عواطفهم، ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا ملتهبا، يفعل فى النفوس ـ وذلك شأن الشعر الحى ـ مالا تفعله الخطب والمقالات،

---

١ – مقدمة الديوان: ٨٨

فكان ـ حقا ـ شاعر الوطنية، وشاعر الشعب، وشاعر السياسة والاجتماع، ولم يجاره أحد فى ذلك من شعراء عصره. (١)

لقد اتخذ حافظ من الأحداث الاجتماعية أساسا لدعوته وصاغ منها أدبا قيِّما يستحث الهمم، ويعطف القلوب، ويحقق التكافل الاجتماعى، ويؤلف بين أبناء الوطن بل الإنسانية كلها.

وإذا كان الشعر فى الوطنيات والسياسيات والاجتماعيات يدور على التفاؤل والتشاؤم، والترغيب والترهيب، فقد أجاد حافظ فى التشاؤم، وفى الترهيب أكثر مما أجاد فى التفاؤل والترغيب، لأن الضرب الأول أنسب لحزنه، وأقرب إلى نفسه، والثانى يحتاج إلى مقدار كبير من الأمل، والأمل يحتاج إلى سرور، وهو قليل فى نفسه، فخير شعر حافظ ماتصل بعاطفته الحزينة.

٢ - روعة الصياغة:

عنى حافظ فى شعره بحسن الصياغة، وجزالة الأسلوب، واستمد ذلك من فطرته الشعرية التى ترعرعت بين جنبيه منذ أن كان صغيرا، واستمدها أيضا من حبه للقديم، وكلفه بالقدماء وأساليبهم، فكان إذا ما أعوزه شيء اتجه إلى القديم ليأخذ منه مايريد من بطولات وأمجاد وحضارة وعلم.

ولا غرابة فى ذلك فهو تلميذ للبارودى، قربت بينهما بواعث كثيرة فى الطريقة، ومازالت بهما حتى جمعت بينهما بعد

---

١ - مقدمة الديوان: ٤٢، ٤٣

ذلك بجامعة الألفة والمودة،(١) ولهذا جاء شعره متسما بالمسحة العربية فى ديباجته، وفى صورته، وفى طريقة آدائه، وهو يحصر المثل الأعلى للشعر فى محاكاة الشعراء المتقدمين من رجال العصر الأموى والعباسى(٢) وقد أشار شوقى فى رثائه لحافظ إلى تأثره بالقديم، وإعزازه وإيثاره، فقال كما أشرنا إلى ذلك من قبل:

ياحافظ الفصحى وحارس مجدها .٠. وإمام من نجلتْ من البلغاء

مازلت تهتف بالقديم وفضلـــه .٠. حتى حميت أمانة القدماء

وكان يعنى أشد عناية بتوفير عناصر الجمال اللفظى لشعره، وكان احتفاؤه بالمعنى لايساوى شيئا بجانب احتفائه باللفظ، لأنه يؤمن قبل كل شىء بالصنعة والديباجة، ونسج الكلام، ومابعد هذا عنده فضل، وهو يرى أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى، وأن أدق المعانى وأجلها قد تقع للدهماء فى حوارهم، ومنازع كلامهم. أما إشراق الديباجة، ونصاعة القول، وتلاحم النسج، ورصانة القافية، فذلك الشعر» (٣) ويؤكد هو نفسه هذه الحقيقة بقوله: «أما أنا فأميت المعنى إذا لم يتفق لى لفظ رائع» (٤)

والصياغة والألفاظ، وعذوبة الجرس من أهم عناصر النص الأدبى، وكثير من نقادنا القدامى جعلوا هذا العنصر هو كل شىء

١- راجع: شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى لعباس العقاد:١١

٢- انظر: مقدمة الديوان: ٣٨

٣-ذكرى الشاعرين

٤- مجلة الهلال. يونية ١٩٢٨ : ٩٠٧

فى الشعر، منهم بشر بن المعتمر، والجاحظ، والباقلانى، وأبو هلال العسكرى، وعبد العزيز الجرجانى، لأن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى، والبدوى والحضررى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير. (١)

لذلك كان حافظ يفتش عن اللفظ المناسب للموضوع، ويوائم بين موسيقى الطول والقصر، وموسيقى الفخامة والرقة، وموسيقى اللين والشدة، وبين المعانى والأغراض، وكان يعيد النظر فى شعره، ويبدل لفظة بأخرى، ويقدم ويؤخر بغية توفير الجمال الفنى لشعره، وكان يسمى هذه «العملية» كلها «التذوق» ويمدح بعض الشعراء بأنه «ذواق» يريد بذلك أن له ذوقا مرهفا فى اختيار اللفظ، واختيار الأسلوب، وقد بالغ فى ذلك حتى كان جهده فى اختيار الألفاظ والأساليب يفوق جهده فى ابتكار المعانى، وكان يستعين على ذلك بالموسيقى، موسيقى اللفظ، وموسيقى الأسلوب، وموسيقى الأوزان والقوافى. (٢)

ومع هذا الحرص الشديد على اختيار اللفظ المناسب، فقد تميز أسلوبه بالبساطة و الوضوح، وليس ذلك عن عجز أو ضعف فى اللغة العربية، فقد كان متمكنا منها، متعمقا فيها، لم يدع كتابا فى اللغة أو فى الأدب إلا قرأه، ولا ديوان شعر إلا واطلع عليه ودرسه دراسة واعية مستفيضة، بل كان مرجعا موثوقا به فى اللغة

١- راجع: البيان والتبين

٢- مقدمة الديوان: ٨٩، ٩٠

العربية، يرجع إليه كثير من الكتاب والأدباء والشعراء فيما قد يتشككون فى صحته.

إذن هذه البساطة لم تكن نتيجة ضعف أو عجز وإنما كانت سمة من سمات أسلوبه الشعرى، لأنه اختط لنفسه أن يكون شاعر الشعب الذى يجسد آلامه، ويصورآماله، فكان عليه، وهو يخاطبه أن يتخير من الألفاظ والعبارات والأساليب مايسهل فهمه على الكافة، وإلا انعزل عن الشعب لاختلاف لغة التفاهم بينه وبينهم، ولذلك آثر الوضوح، فكان شعره من نوع السهل الممتنع، وهذا إعجاز فى حد ذاته. (١)

فشعره بحق مشرق الديباجة، جزل اللفظ، صافى القول، محكم النسج، رصين القافية (٢) يتجلى فيه عنصر الخطابة وخاصة فى قصائده الوطنية، والاجتماعية، حتى يثير النفوس، ويوقظ الهمم، ويشحذ العزائم، ويجعل المشاعر تضطرب بين الجوانح، والأحاسيس تضطرم بين الصدور. (٣)

٣- روح الإيمان العميقة:

ملأ الله قلب حافظ إيمانا فاض به شعره، وتجسد فى قصائده، وانطلقت روح الإيمان لديه بمنطلقات عدة:

فهى تنطلق من الإيمان بحق الشعب فى الحياة، والعمل، والتقدم والازدهار، وهى تنطلق لتأخذ بيده إلى طريق الحق، وتبعده

١- راجع: مقدمة الديوان: ٣٣، ٣٤

٢- قصة الأدب فى مصر: ٢٢٣/٥

٣- دائرة معارف الشعب (حافظ ابداهيم، جمال الدين الرمادى: ١٨٩/١

عن الضلال مبينة لك طريق الخير، محفزة له على السعى إلى الأمل المنشود بصورة مشرقة من التاريخ الوضاء، محذرة له من عثرات الانحراف، ومساوىء التخلف.

وهى تنطلق لتعاقب هذا الشعب على تقصيره وخزلانه، وإهماله لتاريخه المشرق، وحضارته المثلى، وانغماسه فى الألقاب والملذات، وغفلته عن اكتساب الصالحات، وجريه وراء الغرب بكل مافيه من نفع أو ضرر دون حذر أو انتباه.

وهى تنطلق لتنصر الفقير، وتشد أزره، وتأخذ بعطفيه فترفق به، وتحنو عليه، وتستصرخ الناس لإنقاذه من شرور الفقر والمتربة، وتهنىء الجمعيات الخيرية لهدفها السامى وسعيها الحميد، ومقصدها الإنسانى.

وهى تنطلق لتوحد الصفوف، وتجمع الشمل، وتزيل ضغائن النفوس بين أفراد الشعب، وتميت الأحقاد، وتمزق أسباب الخلاف دينيا كان أو سياسيا، وتجعل من الأمة بنيانا مرصوصا يقف أمام التحديات الخارجية.

وهى تنطلق لتمثل حملة السخط العام على جيوش الاحتلال، التى دنست أرض الإسلام الطاهرة بأقدامها، وحكمت أمة الكنانة بغير شريعتها، وأثارت الفتن والانقسامات بين صفوف الشعب الآمن، لذا فهى تتجه إليهم لتحرق مخططاتهم، وتفضح مؤامراتهم، وتكشف النقاب عن سياستهم، مبينة لهم حرية الشعب، وإباء المسلمين الذين يأبون السجود لغير الله، والطاعة لغير حكمه وأمره.

لقد انطلقت روح الإيمان عند حافظ، ففاضت عن ذاته لتعم كافة جوانب شعره الوطنى والاجتماعى، ونلمسها فى جميع قصائده على اختلاف أغراضها وموضوعاتها، وحسبنا ماعرضناه من أمثلة تجلت فيها هذه الروح واضحة جلية.

فلكم شارك الشعب فى آلامه وأحزانه وأخذ بيده إلى النهضة والتقدم والازدهار، حتى يتقدم الشرق الذى يتمثل فيه العالم الإسلامى، واتخذ لذلك كافة الوسائل، وشتى العلاجات، فهو ساعة يستنهض الهمم عن طريق الأمل المنشود، والتقدم العلمى المنير، وساعة أخرى يتطلع إلى المجد الزاهر، والحضارة الكريمة ليأخذ منها الصورة المثالية الحية، داعيا المسلمين إلى اتباعها، والاقتداء بها.

ولطالما ذكر مواطنيه بماضى الإسلام المجيد، وإذا لم يقبل دعوته هذه أولئك الذين أصبحوا الآن رجالا، فإنه يضع آماله فى جيل الطلبة الذين يتعلمون فى المدارس، وعقولهم مملوءة بقصص أبطال المسلمين الأوائل وملوكهم. (١)

---

١ - شوقى شعره الإسلامى: ٥٩ (عن حياة حافظ لهيكل) : ذكرى الشاعرين القسم الأول: ٣٧

المبحث الرابع: حافظ إبراهيم فى ميزان النقد الأدبى

يعد حافظ إبراهيم رائد الشعر الاجتماعى فى عصره دون منازع، فقد طوع الشعر ليصور مجتمعه تصويرا دقيقا، وجدد فى موضوعاته وأغراضه، فبدلا من أن ينتظم فى موضوعات امرىء القيس، وطرفة، أو جرير والفرزدق، أو بشار وأبى نواس، نظم فى موضوعات عصره، وأمانىّ قومه... ولم يجاره أحد من شعراء عصره، وكان يضطرب فى شعره بين التفاؤل والتشاؤم اضطراب الأمة بين اليقظة والنوم، والعمل والتواكل، والإصابة والخطأ، فهو صدى لها فى حركاتها، وهو المدرس الحكيم الذى يأخذ موضوع درسه من حوادث يومه... ويتخذ ما يحدث من أحداث اجتماعية فى عصره أساسا لدعوته، وسنادا لهجمته(١)

ويقرر هذه الحقيقة الدكتور طه حسين فى قوله: «لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه، ولحياة شعبه كحافظ ـ رحمه الله ـ فالذين يقرءون شعره فى حياته، والذين كانوا يستمعون له إذا أنشد الشعر فى المجالس الخاصة، والمجامع العامة، يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح: صورة الشعب، وما يجد من ألم وأمل، وصورة حافظ وما يحس من يأس أو رجاء... وهو شاعر مطبوع أو قريب من المطبوعين فى تصوير هذه العواطف، وليس غريبا أن ينطق لسانه بالشعر فى تصوير هذه العواطف، فيبلغ فى ذلك ما يريد فى غير مشقة ولا عناء، ويصل إلى هذه المنزلة التى لا يصل إليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين، أو أن تكون الظروف قد واتتهم، وأتاحت لهم من

١- مقدمة ديوان حافظ: ٧٧، ٧٩، ٨٠

أسباب القدرة والبراعة ما يقربهم من المطبوعين» (١)

لقد اتصل حافظ بالشعب اتصالا وثيقا، وتجاوبت نفسه مع نفوس أبناء الشعب تجاوبا جعل أمله وأمل الشعب واحدا، بل جعل منه مرآة صادقة لنفسه هو، ولحياة الشعب الذى امتزج به، فهو صورة ـ وإن تكن مصغرة ـ للشعب فى آماله وآلامه، ورجائه ويأسه، فليس غريبا إذن أن يسهل عليه تصوير عواطف قومه، فيبلغ من ذلك ما لم يبلغه شاعر آخر، ويجعل قراءه ومستمعيه يجدون فى شعره ما يجدونه فى نفوسهم من الحزن واللوعة، والحسرة، والأسى، فإذا انتحب انتحب معه أبناء الشعب صادقين، وإن ذرف الدمع ذرفوه معه متأثرين(٢)

وحافظ ابراهيم ـ كما يذكر العقاد ـ شاعر الحرية القومية وشاعر الحرية الشخصية لم يهمل الناحيتين، ولم يبلغ فى إحداهما مبلغ الكمال، فهو شاعر الحياة القومية فى كلامه عن اللغة الفصحى، وعن السفور والحجاب، وعن فاجعة دنشواى، وعن أزمات المال والسياسة، وعن مضاربات الأغنياء فى سوق القطن، وأضرار الشركات بالبلاد، ثم هو شاعر الحياة الشخصية فى شكواه وهزله، وخمرياته، ومساجلاته، وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه، وخلجات طبعه، فليس له فى أبناء جيله نظير فى الجمع بين الخصلتين، والظهور بحالة قومه، وحالة نفسه معا على صفحات ديوانه(٣)

١- حافظ وشوقى: ١٣٥ ٢- راجع: حافظ ماله وما عليه:١٢٤

٣- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى: ١٥

لقد حمل حافظ بين طيات شعره أثرا من كل طريق سلكته بلاده أثناء حياته، فكان أقرب إلى تمثيلها من جميع زملائه... وهو رجل يدل بشعره على زمنه وعلى نفسه، وهو فصل من الفصول المبينة له مكانه الباز فى كتاب «الأدب المصرى الحديث» (١)

وعلى الرغم من هذه المكانة التى احتلها حافظ، والتى أشاد بها النقاد السابقون وكثير غيرهم، فقد نقد (المازنى) شعر حافظ نقدا عنيفا فيه كثير من التحامل، وغير قليل من الظلم، وذلك فى مجموعة من المقالات التى نشرها فى (صحيفة عكاظ) سنة ١٩١٤ ثم جمع هذه المقالات فى كتاب سماه (شعر حافظ) ويصفه بأنه شعر سياسى أو صحفى، وشعر مناسبات يومية، وليس شعرا وجدانيا ذاتيا، لأن شاعره ضعيف لا يستطيع أن يستلهم ما فى الكون والحياة من جمال وحق، ولا يكشف عن شخصية صاحبه، فهو شعر كاذب مملوء بالمبالغات والتهاويل، وفيه كثير من الأخطاء اللغوية، والسرقات من الشعراء السابقين، فحافظ يريد أن يقول شعرا، ويعالج ما ليس فى طبعه(٢)

ولو كان للأدب حكومة تنتصف من المسىء، وتكافىء المحسن لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر أن يتابع ما اشتراه الناس من كتبه ثم يحرقها بيده، لأن شعره جناية على الأدب، وأنت تعلم أن من الشعر ما يكون آثما، ومنه ما هو برىء صالح، أما الآثم فهو الذى يفسد الذوق، ويعود الناس الكذب، ويضلل النفوس، وشعر حافظ من هذا النوع (٣)

١- المرجع السابق: ١٩ ٢- شعر حافظ: ١٧

٣- المرجع السابق: ١٤

ويقول أيضا عن حافظ: ولولا مؤازرة الأستاذ الإمام له وتنويهه به، وحث الناس على اقتناء ديوانه لكان اليوم نكرة من النكرات، وغفلا من الأغفال» (١)

وكان أولى للمازنى أن يعف عن مهاجمة حافظ هذه المهاجمة العنيفة، فلكل ذوقه، ولكل طريقته فى صياغة الشعر ونظمه... وإنه لمن الظلم البين، والتحكم أن يحاول شاعر من مذهب إخضاع شاعر من مذهب آخر لمذهبه، ففى ذلك تعسف وظلم(٢)

وقد اعترف المازنى بظلمه لحافظ وتجنيه عليه، وأعلن ـ بعد مدة طويلة ـ أنه كان متجنيا عليه، وأنه رجع عن رأيه فى حافظ وشعره يقول: «ولقد افتتحت سيرتى فى الكتابة بأن نقدت حافظا ـ رحمه الله ـ فى سلسلة مقالات كنت أعتز بها، وأعتدها شيئا ثمينا، فجمعتها ونشرتها فى كتاب بيع من نسخه القليل، وتكدس أكثرها عندى، فبعته لبقال رومى، ليلف فى ورقاته ما شاء من جبن وزيتون، أو يفعل بها ماهو شر من ذلك، وقلت وقد خلصت أنفاسى واستراح قلبى: هذا خير فما يستحق مثل هذا النقد إلا هذا المصير» (٣)

ولعل النقاد الذين هجموه ـ وهم من أرباب المدرسة الجديدة ـ كانوا من الأدباء الشبان، وقد رغبوا فى أن يكون لهم ظهور على المسرح الأدبى، وحتى لا يحجبهم هؤلاء العمالقة تحاملوا عليهم بهذا النقد(٤)

١- المرجع السابق: ٢١ ٢- الأدب العربى المعاصر: ٦٤

٣-مجلة أبولو يولية١٩٣٣ص:١٣٢٨ ٤-حافظ ابراهيم شاعر النيل:٩٧، ٩٨

لقد كان حافظ بحق مشهودا له بالتفوق هو وشوقى، وهما فى رأى كثير من النقاد أعظم شعراء العصر الحديث(١)

ومع هذا التفوق فقد أخذ عليه الدكتور طه حسين أنه فى بعض الأمورلم يقطع برأى كقضية السفور والحجاب، فقد عرض لقاسم أمين فتحفظ، ولم يقطع، ولم يعلن مناصرة صاحبه، وكان فى ذلك مصورا ـ سواء أراد أو لم يرد ـ لموقف كثير من المستنيرين فى ذلك العصر، وكانوا يرون رأى قاسم أمين، ولكنهم يشفقون من الجهر به، ويرجئون الأمر إلى الأيام تقضى فيه بالحق(٢)

وهذا المأخذ أخذه عليه أيضا أحمد أمين ويتضح ذلك من قوله: إنه لم يكن يتعمق فى دراسة المسائل الاجتماعية، ولم يكن يكون فيها رأيا بعد بحثها وتمحيصها، ودرس حججها، كموقفه فى مسألة الزوجية (٣) لقد هرب من إبداء رأيه فيها، ولم يتحيز إلى أحد الفريقين، وترك المتنازعين يتنازعون فى حرية المرأة وتقييدها، وكموقفه إزاء دعوة قاسم أمين، فقد حكى عنه بعض أصدقائه رواية عنه، أنه لم يقرأ كتاب تحرير المرأة، وإن كان قال فيه شعرا، ولم يقطع بإصابة قاسم، أو خطئه (٤)

وعلى الرغم من هذا فقد دافع عنه بقوله: (ولكنه قد

١- راجع: مجلة الهلال عدد نوفمبر ١٩٣٢ ص:١٧

٢-حافظ وشوقى: ١٤٨

٣-وذلك فى قضية: زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد من السيدة صفية ابنة السيد احمد عبد الخالق السادات انظر ديوان حافظ ابراهيم: ٢٥٦/٢.

٤- مقدمة الديوان: ٨٣

يخفف من هذا النقص أن هناك فرقا بين الأديب والعالم، فالعالم يلاحظ الأشياء، ليستكشف ظواهرها وقوانينها، وعلاقتها بالأشياء الأخرى، وعلاقاتها بالظروف التى تحيط بها، على حين أن الأديب يلاحظ الأشياء من حيث علاقتها بعواطف الإنسان، وطبيعته الأخلاقية... فهذه الناحية الخاصة التى يعنى بها الأديب تغتفر لحافظ قلة عمقه فى البحث، وإمعانه فى الدرس، وتخفف حدة نقدنا فى أنه كان ينظر إلى الأشياء نظرة عامة من ناحية اتصالها بعواطف الجمهور» (١)

والحق أن شاعرنا حافظ إبراهيم ناصر صاحبه قاسم أمين، ولكن بطريقة الرجل اللبق، فمن ادعى ألا رأى له، فقد جانبه الصواب، وأما عن عدم تعمقه فى دراسة المسائل الاجتماعية فحسبه كشاعر أن يكون مصورا لحياة شعبه، ومايوحى إليه حبه الشعب من كلف بمشاكله، فيكون صوتا له يصور عيوبه الاجتماعية. وليست مهمة الشاعر كمهمة الباحث الاجتماعى من دقة البيان والتمحيص(٢)

وقد أخذ عليه بعض النقاد أنه فى قصصه الاجتماعى كان ينحو منحى الرصافى ومطران فى قصصهما الاجتماعى، ولكنه ظل متخلفا عنهما كثيرا... ومن ذلك قصة المرأة الحامل التى فقدت كل عائل لها فى الحياة(٣)

١- مقدمة ديوان حافظ: ٨٤ ٢- راجع: حافظ ما له وماعليه: ١٧٩

٣- حافظ للهنداوى: ١٠٧ راجع قصة المرأة الحامل فى ديوان حافظ: ٢٧٥/١، ٢٧٦، وفى هذا البحث ص: ١٠، ١١، ١٢

وإذا عرفنا أن حافظا هو شاعر الشعب الذى يرى كل يوم قصصا كثيرة من هذا النوع، فليس بغريب عليه أن يكون هو صاحب القصة، ولم يأخذها عن غيره، وبخاصة أن الشاعرين اللذين قيل: إنه قلدهما يعدان من المعاصرين له، وإذا كان قد قصر عنهما فى ذلك فهذا يرجع إلى طبيعته التى لم تكن تألف هذا النوع من الكتابة فى شعره.

المبحث الخامس: بين حافظ وشوقى

وإذا كان لابد من الموازنة بين حافظ وشوقى من حيث تناولهما الأحداث الاجتماعية فى شعرهما فخلاصة القول أن حافظا فى أول حياته، أيام بؤسه وتشريده اتجه إلى أمته وأفرغ إحساسه فى شعره فأجاد، وتفوق على صاحبه، لأنه كان أصدق عاطفة، وأقوى شعورا، وتدفقت فى شعره الحيوية بما يلهب الحماس، ويزيد من قوة التأثير أكثر من شوقى.

ويتجلى ذلك على سبيل المثال لا الحصر فى حديثه عن «حريق ميت غمر» فقد تجلت قدرته فى تصوير الكارثة التى حلت بهذه المدينة تصويرا أثار المشاعر، وهز القلوب، ويقول مصورا الدمار الذى ألحقته نار الحريق بهذه المدينة وأهلها:

سـائلوا الليل عنهم والنهارا .٠. كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأ.٠. م وكيف اصطلى القوم نـارا
كيف صاح العجوز تحت جدار .٠. يتداعى وأسـقف تتجارى
أين طوفان صاحب الفلك يروى .٠. هذه النار فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الديـاجى فباتت .٠. تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجرى يمـينا .٠. ورمتهم والبؤس يجرى يسـارا
فأغارت وأوجه القـوم بيض .٠. ثم غارت وقد كسـتهن قارا
أكلت دورهم فلما اسـتقلت .٠. لم تغادر صـغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عـراة .٠. حذر الموت يطلبون الفـرارا

يلبسون الظلام حتى إذا ما .٠. أقبل الصبح يلبسون النهارا

حلة لا تقيهم البرد والحـ .٠. ر ولا عنهم ترد الغبـــــارا (١)

يقول داعيا الأثرياء وأهل الخير إلى التبرع بالمال لتخفيف ويلات هذا المصاب عن هولاء الأبرياء الذين يتضورون جوعا فى العراء:

أيها الرافلون فى حلل الوشـ .٠. ي يجرون للذيول افتخارا

إن فوق العراء قوما جيـــاعا .٠. يتوارون ذلة وانكســـــارا(٢)

أما حديث شوقى عن «حريق مدينة ميت غمر» فقد جاء متهالكا ضعيفا غير مناسب فى تشبيهاته وصوره، وجاءت عاطفته فاترة، لأنه لم يحس بهول المصاب كما أحس به حافظ، لأنه عاش حياة مترفة، ولم يعرف حياة البؤس والشقاء التى عاشها حافظ بل سمع عنها فقط:

مازلت أسمع بالشقاء رواية .٠. حتى رأيت بك الشقاء مصورا(٣)

ولذلك جاء تصويره للنار وما فعلته بأهل هذه المدينة تصويرا هينا لا يحرك ساكنا، ولا يثير مشاعر السامعين:

طلعت عليك النهار طلعة شؤمها .٠. فمحتك آساســا وغيرت الذرا

ملكت جهاتك ليلة ونهـــارها .٠. حمراء يبدو الموت منها أحمرا

لا ترهب الطوفان فى طغيانـــها .٠. لو قابلته ولا تهاب الأبحـــرا

١- ديوان حافظ: ١/٢٥٠

٢- ديوان حافظ: ١/٢٥١

٣- الشوقيات: ٤/٤٥

أسرتهم وتملكت طرقاتـــــهم .٠ من فر لم يجد الطريق ميـسـرا

خفت عليهم يوم ذلك موردـــا .٠. وأضلهم قدر فضلوا المصـــدرا

حيث التفت ترى الطريق كأنها .٠. ساحات حاتم غب نيران القرى

وترى الدعائم فى السواد كهيكل .٠. خمدت به نار المجوس وأقفـرا

وتشم رائحة الرفات كريهـــــة .٠. وتشم منها الثاكلات العنبـــرا

كثرت عليه الطيرفى حوماتها.٠ .ياطير(كل الصيد فى جوف الفـــرا)(١)

وفى حديثهما عن الغلاء الذى أصاب البلاد بعد الحرب العالمية الأولى وصف كل منهما الغلاء ومضاره، وطالب المسئولين بالقضاء عليه، والعناية بالفقراء، والاهتمام بهم فى مثل هذه الظروف القاسية حتى لا يتحول الفقير إنسانا شريرا نتيجة الظلم الفادح الذى يقع عليه.ولكن الدارس لقصيدة حافظ يتضح له أنها أقوى من قصيدة شوقى، فقد أخذ يصرح بشدة، ويطالب المسئولين مطالبة عنيفة أن يصلحوا حال الفقير، وينقذوه من ويلات الغلاء، وراح يعد الأسباب التى جعلت البلاد تعيش فى هذا الغلاء الفاحش.

نبعت كل هذه المعانى من نفس تغلى كالبركان، فجاء صوته هائلا ومؤثرا تأثيرا عميقا فى كل من يسمعه، أو يقرأه:

أيها المصلحون ضاق بنا العيـ .٠. ش ولم تحسنوا عليه القيامـــا

عزت الســـلعة الذليلة حتى .٠. بات مسح الحذاء خطبا جساما

١- الشوقيات: ٤٦/٤

وغدا القوت فى يد الناس كاليا .٠ . قوت حتى نوى الفقير الصياما

ويخال الرغيف فى البعـد بدرا .٠ . ويظن اللحوم صيدا حراما (١)

صور متلاحقة قذفت بها عاطفة حافظ الملتهبة لترسم صورة متكاملة لهذا الشعب البائس، ولتجسد الحرمان الذى يعانيه، فقد عز على الفقير من أبنائه الحصول على أبسط الأشياء، بل عز عليه الحصول على رغيف العيش الذى يقاوم به الجوع الذى كاد يفترسه، وفى سخرية مرة ينادى حافظ المسئولين بقوله: أيها المصلحون، ليذكرهم بواجبهم الذى تخلوا عنه.وراح يناديهم مرة ثانية، ويقرعهم بقوله:

أنقذوا الفقراء مما هم فيهم، فهم أحق بالرعاية من الأراضى التى يقتطعها الأغنياء حلفاء الاستعمار، أصلحوا أنفس هؤلاء الفقراء، وانزعوا من قلوبهم الأحقاد والضغائن.

ثم أخذ يوازن بين المصريين ـ الذين يجنحون إلى الكسل، والإقامة فى مكانهم لا يتحركون ـ وبين الشاميين الذين يرحلون من مكان إلى مكان ويهاجرون من بلادهم هروبا من ذل المستعمر، وبحثا عن الرزق، وسعيا وراء الحياة الكريمة، وهو بذلك يشحذ همم المصريين:

أيها المصلحون أصلحتـــم الأر .٠ . ض وبتم عن النفوس نياما

أصلحوا أنفسا ضر بها الفقـــ .٠ . ر وأحيا بموتها الآثامـــا

ليس فى طوقها الرحيل ولا الجـ .٠ . د ولا أن تواصل الإقداما

تؤثر الموت فى ربا النيل جوعـــا .٠ . وترى العار أن تعاف المقاما

---

١ - ديوان حافظ: ٣١٦/١

ورجال الشام فى كـــــــرة الأر .٠. ض يبارون فى المسير الغماما

ركبوا البحر جاوزوا القـــطب فاتوا .٠. موقع النيرين خاضوا الظلاما

يمتطون الخـطوب فى طلب العيـ .٠. ش ويبرون للنضال السهاما

وبنو مصر فى حمى النيل صرعى .٠. يرقبون القضاء عاما فعاما(١)

ثم يسأل النيل فى أسى وحسرة كيف يمسى بنوه الكرام عطاشا، بينما الأجانب يرتوون من مائه، وينعمون بخيراته، ويرى أن هذه المذلة ترجع إلى ضعف المصريين، وعدم مقاومتهم للمستعمرين أراذل الناس، وهو بذلك يدعو أبناء وطنه إلى استخدام القوة، لاسترداد حقوقهم المسلوبة، واستعادة خيرات مصر لأبنهائها:

أيها النيل كيف نمسى عطاشا .٠. فى بلاد رويت فيها الأناما

يرد الواغل الغريب فيـــــروى .٠. وبنوك الكرام تشكو الأواما

إن لين الطبـــــــاع أورثنا الذ .٠. ل وأغرى بنا الجناة الطغاما

ثم يعود مرة ثالثة وينادى المسئولين ويذكرهم ـ فى سخرية مرة ـ بالفقراء الذين أوشك الغلاء أن يقضى على شيوخهم وأطفالهم، حتى إنهم من شدة الغلاء تمنوا الموت، لأنهم أوشكوا أن يأكلوا الحنظل الذى تأكله الأنعام، ليدفعوا به الجوع الذى كاد يهلكهم، ويأسى للمصريين الذين يتجرعون مذلة الفقر والحرمان فى بلادهم، وقد كرمهم الله سبحانه وتعالى:

أيها المصلحون رفقا بقوم .٠. قيد العجز شيخهم والغلاما

وأغيثوا من الغلاء نفوسا .٠. قد تمنت مع الغلاء الحماما

---

١ - ديوان حافظ: ٣١٧/١

أوشكت تأكل الهبيذ من الفقـ .٠. ر وكادت تزود عنه النعاما

قد شقينا ـ ونحن كرمنا اللـــ .٠. ـه بعصر يكرم الأنعاما (١)

أما الدارس لقصيدة شوقى (بعد المنفى) والتى يصور فيها الغلاء يجد أن شوقى قد استهلها بنداء الشباب طالبا منه التوسل والدعاء أملا فى أن يرفع الله عذاب هذا الغلاء عن مصر وأبنائها:

شباب النيل إن لكم لصـــوتا .٠. ملبى حين يرفع مستجابا

فهزوا العرش بالدعوات حتى .٠. يخفف عن كنانته العذابا (٢)

ثم يعجب من انتقال البلاد من الحرب العالمية الأولى التى تشبه فى محنتها حرب البسوس التى دارت رحاها فى الجاهلية إلى محنة الغلاء التى أصابت البلاد بجدب وقحط يشبه ما حدث فى سنى يوسف عليه السلام. ولكن أين يوسف الآن حتى ينقذ البلاد من هذا البلاء ؟ !

ولم يجد أمامه إلا الله سبحانه وتعالى فشكا إليه ما يعانيه أبناء مصر من جوع وحرمان على الرغم من وجود نهر النيل فى بلادهم، وسأله أن يرزق التجار الهدى ويرقق قلوبهم المتحجرة، وإلا فلينزل بهم أقسى عقوبة وينتقم منهم كما ينتقم من الذين يأكلون أموال اليتامى.

أمن حرب البسوس إلى غلاء .٠. يكاد يعيدها سبعا صعابا

وهل فى القوم يوسف يتقيها .٠. ويحسن حسبة ويرى صوابا

١- المرجع السابق: ٣١٧/١

٢- الشوقيات: ٦٩/١

عبادك رب قد جاعوا بمصر .٠. أنيلا سقت فيهم أم ســـرابا

حنانك واهد للحسـنى تجارا .٠. بها ملكوا المرافق والرقابـــا

ورقق للفقير بها قلوبـــــا .٠. محجرة وأكبادا صـــــلابا

أمن أكل اليتيـــم له عقاب .٠. ومن أكل الفقير فلا عقابـا

أصيب من التجار بكل ضار .٠. أشد من الزمان عليه نابـــا

يكاد إذا غزاه أو كســـــاه .٠. ينازعه الحشاشـــة وإلا هابا

ويعجب من الأغنياء الذين لا يخرجون زكاة أموالهم التى فرضها الله للفقراء، ويزعمون أن الغلاء قد أضرهم، ويتباكون، ومثل هؤلاء لا يسمع الإنسان شكواهم، ولا ينخدع بدموعهم، فما أشبههم بالسيدة التى تستأجر فى المآتم لتصف المصاب، وليس فى قلبها قيد أنملة من الحزن.

وتسمع رحمة فى كل نـــاد .٠. ولست تحس للبر انتـــدابا

أكل فى كتاب اللـــــه إلا .٠. زكاة المال ليسـت فيه بابـا

إذا ما الطاعمون شكوا وضجـوا .٠. فدعهم واسمع الغرثى السغابا

فما يكون من ثكـــل ولكن .٠. كما تصف المعددة المصابا (١)

فقصيدة شوقى هذه ـ بما فيها من توسلات ودعاء، ودعوة الأغنياء لإخراج الزكاة التى فرضها الله فى أموالهم للفقراء ـ أشبه ما تكون بخطب المنابر، وشوقى هنا أقرب إلى الفقهاء منه إلى الشعراء، ولذلك أقول: هذا شعر فقهاء.

---

١ - الشوقيات : ٦٩/١

أما قصيدة حافظ فقد تجمعت فيها كل مقومات النص الأدبى، فالعاطفة متقدة، لأنها ترتبط بآلام أمته، وتلك هى عاطفته فى شعره الاجتماعى الذى ينفث فيه من روعه، ويبثه كل مافى نفسه من حرارة ومرارة.

ولأن الصورة كانت قاتمة أمام عينيه جاءت العاطفة من النوع الحزين القائم على الترهيب والتقريع، ولأنها عاطفة صادقة جاءت معانيه وأسلوبه على درجة من الدقة والإحكام بحيث تؤثر فى السامعين.

وتجربته الشعرية التى عاشها جعلت أفكاره تبدو فى صورة واضحة فهو صاحب رسالة فى مجتمعه، ولذلك يعز عليه أن يرى أبناء هذا المجتمع فريسة لهذا الغلاء الفادح، وللأمراض الاجتماعية التى ابتليت بها مصر فى عصره.

ولست بهذه الموازنة أفضل حافظ على شوقى إذ المزية لا تقتضى الأفضلية كما يقول المناطقة. وإنما أردت فقط أن أوضح أن حافظا تربع على عرش الشعر الاجتماعى فى عصره بروح الشاعر المسلم، وأنه كتبه بدماء قلبه، ونفخ فيه من روحه، ومزجه بتعاليم الإسلام ومبادئه، ومثله وقيمه النبيلة، ليثير به الهمم، ويحرك العزائم، وليبعث به أمته، ويحى به شعبه، بل العالم الإسلامى كله.

وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

دكتور سعد عبد السلام على نصار

المصادر والمراجع

١- الأدب العربى المعاصر فى مصر للدكتور شوقى ضيف . ط: الثالثة دار المعرف.

٢- الأدب فى خدمة الحياة والعقيدة. عبد الله العويشق. ط: الأولى ١٩٧٠

٣- الأدب الهادف محمود تيمور. مكتبة الآداب القاهرة ١٩٥٩

٤- الآدب وفنونه دكتور عز الدين اسماعيل. دار النشر المصرية ١٩٥٥

٥- الأدب والمجتمع محمد كمال الدين على يوسف. الدار القومية للطباعة ١٩٦٢

٦- أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث. سعد الدين محمد الجيزاوى ح:١ .ط: الأولى مكتبة نهضة مصر

٧- البؤساء لفيكتور هوجو. ترجمة حافظ ابراهيم.ط: الخامسة

٨- بلابل من الشرق. صالح جودت دار المعارف سلسلة (اقرأ)

٩- التجديد فى الأدب المصرى الحديث: عبد الوهاب حمودة ط. الأولى دار الفكر العربى

١٠-تطور الأدب الحديث فى مصر دكتور أحمد هيكل طالثانية دار المعارف

١١- حافظ ابراهيم بقلم زكى مبارك إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨

١٢-حافظ ابراهيم شاعر النيل خليل الهنداوى ط الأولى دار الأنوار

١٣- حافظ ابراهيم شاعر النيل دكتور عبد الحميد سند الجندى دار المعارف ١٩٥٩

١٤-حافظ ابراهيم ماله وماعليه دكتور محمد كامل جمعة ط الثانيه مطبعة مخيمر١٩٦٠

١٥- حافظ وشوقى للدكتور طه حسين الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٣

١٦- حياة حافظ أحمد محفوظ مطابع الناشر العربى القاهرة ١٩٥٨

١٧-دراسات فى الأدب الحديث ومدارسه دكتور محمد عبد المنعم خفاجى الحلقة الأولى دار الطباعة المحمدية بالأزهر

١٨-دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية عباس محمود العقاد دار العلم العربى

١٩- الدين والأخلاق فى شعر شوقى على النجدى ناصف ط الثانية مكتبة النهضة ١٩٦٤

٢٠-ديوان حافظ ابراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠

٢١-ديوان حافظ القديم نشر محمود توفيق شرح محمد ابراهيم هلال ط:الثانية ١٩٢٢

٢٢-زعماء الإصلاح فى العصر الحديث أحمد أمين مطبعة مصر ١٩٤٨

٢٣-شاعر الشعب سامي الدهان دار المعارف سلسلة (اقرأ)

٢٤-شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى عباسمحمود العقادط: الثانية مكتبة النهضة المصرية.

٢٥- شعر حافظ إبراهيم: إبراهيم عبد القادر المازنى مطبعة البوسفور ١٩١٥

٢٦- شوقى شعره الإسلامى دكتور ماهر حسن فهمى ط:الثانية دار المعارف

٢٧- الشوقيات أحمد شوقى المكتبة التجارية الكبرى

٢٨- الفنون العربية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة أنيس المقدسى دارس الكتاب العربى ١٩٦٠

٢٩- قيم جديدة لأدب العربى القديم والمعاصر دكتورة عائشة عبد الرحمن دار المعارف ١٩٧٠

٣٠- كتاب المهرجان الذى أصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ويتضمن البحوث القيمة التى ألقاها أساتذة أجلاء فى الاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاما على وفاة شاعرنا حافظ ابراهيم ط: المطبعة الأميرية ١٩٥٧

٣١- ليالى سطيح للشاعر محمد حافظ ابراهيم دراسة عبد الرحمن صدقى الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤

٣٢- منهج الفن الإسلامى محمد قطب دار الشروق الطبعة الخامسة ١٩٨١

الدوريات:

٣٣-مجلة أبولو يوليو ١٩٣٣ ص:١٣٢٨

٣٤- مجلة الرسالة ١٩٣٤/٧/٢٣ مقال للأستاذ احمد عثمان عبد المجيد بعنوان (شاعر النيل) ومقال للأستاذ أحمد حسن الزيات بمناسبة ذكرى حافظ

٣٥- مجلة الرسالة ١٩٣٤/٨/١٣ مقال للأستاذ كرم ملحم كرم بعنوان (مصر تنسى شاعرها حافظ)

٣٦- مجلة المقتطف مجلد ٨١ سنة ١٩٣٢ مقال للأستاذ مصطفى صادق الرافعى بعنوان(حافظ ابراهيم)

٣٧- مجلة الهلال عدد نوفمبر ١٩٣٢ مقالان عن شوقى وحافظ